الفصل الثانى

إعادة بناء المجتمع الإسلامى

تمهيـــد :

اذا كان الفتح الاسلامى قد انتهى بانتهاء القرن الأول الهجرى — واستقرت بذلك الامبراطورية الاسلامية فى الشرق والغرب — فنهاية القرن الثالث الهجرى تعتبر النهاية الزمنية لاستقرار الفكر الاسلامى وتكامله . على معنى أن كل الاتجاهات الفكرية ، ومدارس الرأى المختلفة فى : الفقه ، والعقيدة ، والتصوف ، قد وضحت وتميز بعضها عن بعض ، وعرف لها انصارها وأتباعها ، ورسمت لها خطوط الجدل والنقاش ، وأصول الاستنباط ، ومناهج الشرح والتوفيق .. الى غير ذلك مما يتصل بتحديد الفكر فى مصادره ، وفى أهدافه ، وفى طريق سيره من : بدايته الى بلوغ غايته .

أما الثلاثة القرون التى تبعت هذه القرون الثلاثة الأولى فقد كانت المسرح الزمنى للكفاح العقلى ، والخصومة الجدلية بين تلك الاتجاهات الفكرية ، التى تم بروزها ، واكتملت معالمها فى الحقبة السابقة . ثم كانت من جانب آخر بالاضافة الى كونها مسرحا لهذه الخصومة الذهنية ، مسرحا أيضا للصنعة العقلية المذهبية . أى لتلك الصنعة التى لا تتعدى فى موضوعها وفى منهجها غاية المذهب والاتجاه الخاص المأثور من قبل .

وانتهى الكفاح العقلى ، مع تلك الصنعة العقلية المحدودة ، الى الحال العقلية ، والنفسية ، والاجتماعية ، التى وصفناها آنفا فى الفصل السابق . وهى حال :

الركود العقلى ،

والفرقة النفسيـــة ،

والتحزب الطائفى ،

والانقسام المذهبى .

ستة قرون مضت على الفكر الاسلامى ، قام فيها ، واكتمل نضوجه ، وتم انحداره .

كان ايجابيا فتحول الى سلبية واضـــحة ،

وكان امارة قوة ذهنية فأصبح علامة ضعف عقلى .

ابتدأ هذا الفكر والجماعة الاسلامية فى صورة امة وجماعة واحدةوانتهى بها الى أشنع ماينتهى عامل التخريب فى تقويض الوحدة ، الى وحدات منفصلة، لا رابط فيها الا الاسم العام وأسلوب التخاصم والتنابذ .

ومع هذا تحولت الجماعة الاسلامية التى تمت لها السيادة على رقعة من العالم واسعة ، وورثت مدنية امبراطوريتين طال الصراع بينهما قرونا عديدة على حكم العالم القديم فى الشرق والغرب ، فى أسرع وقت لم يعهده التاريخ البشرى ـــ الى دويلات ومناطق ، مزقها الضعف السياسى ، واصطنعها هذا الضعف (١) .

---

(١) منذ منتصف القرن الثالث الهجرى أخذت الخلافة الاسلامية تنقص من أطرافها حتى لم تعد تتجاوز مابين لابتى دائرة ضيقة حول بغداد .

وصارت خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته من بعده .

وبلاد البحرين للقرامطة .

واليمن لابن طباطبا .

وأصفهان وفارس لبنى بويه .

والبحرين وعمان لفرع من عائلة القرامطة ، قد أسس فيها دولة مستقلة .

والأهواز وواسط لمعز الدولة .

وحلب لسيف الدولة .

ومصر لأحمد بن طولون ، ومن بعده للملوك الذين تغلبوا عليهـــا وامتلكوها واستقلوا بحكمها : كالأخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك وغيرهم .

ولو أن هذا الضعف السياسى وصل بالجماعة الاسلامية الى دويلات بدل دولة ، دون أن تقضى الحزبية المذهبية ، والركود العقلى ، والفرقة النفسية على علاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل كل دويلة أو داخل كل منطقة — لأملنا فى أن التصدع الداخلى يتحول الى قوة سياسية موحدة يوما ما ، أو على الأقل لأملنا فى قيام تكتل اسلامى بين هذه الدويلات يدفع خطر أى عدوان خارجى على المسلمين ، عندما يدق ناقوسه ، أو عندما تلوح فى الأفق أية أمارة بوقوعه فى القريب أو البعيد .

ولكن ازدوج الضعف واجتمعت عوامله

وانضم الى التصدع الداخلى المذهبى عدوان الصليبيين بزعامة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

وعدوان البرابرة بزعامة هولاكو من التتار .

أولئكم من الغرب ينزلون من البحر الى شواطىء الشام : سوريا ، ولبنان وفلسطين الآن .

وهؤلاء ينحدرون من جبال وسط آسيا وشمالها .

أولئكم يريدون الاستيلاء على بيت المقدس : مهد المسيحية ، ورمز وحدتهم فى العقيدة .

وهؤلاء يريدون التوسع فى الجاه العسكرى ، بعد أن حرموا جاه العلم والفطنة فى التوجيه والقيادة السياسية .

يدفع أولئكم الصليبيين ايمان الجاهل .

ويدفع هؤلاء التتار جهل الانسان بقيمة المعرفة الى الاعتداء أو الى التوسع المخرب للمدنية والحضارة .

وصادف جهل الفريقين علم المسلمين الذى انتهى بهم الى ما هو شر من الجهل .

وهكذا : كان الظلام الذى أرخى نقابه على مستقبل الجماعة الاسلامية شديد الحلوكة والكثافة . وكان من الشاق ان يبدد فى يسر ، أو فى وقت قصير ،

لو وجدت العوامل التى تبدده ، أو كانت هذه العوامل من الكثرة والقوة بحيث تستطيع تبديده .

ومن رأينا اذن أنه : هناك عاملان فى ضعف المسلمين :

عامل داخلى : وهو التفتت الذى نشأ عن الفرقة المذهبية والركود الذهنى .

وعامل خارجى : وهو الضعف الذى نشأ عن الاعتداءات الصليبية والغزو التتارى المرهب .

وبهذا وذاك تلاشت القوة السياسية فى الجماعة الاسلامية ، وتلاشت قوة التماسك والوحدة فى التوجيه :

ولكن من رأى بعض الغربيين : أن ضعف المسلمين لم يكن له اتصال بالجانب السياسى اطلاقا . بل يرى هذا البعض :

« أن التقهقر فى الاسلام لم يكن نتيجة لفقدان القوة المادية وللسيادة السياسية ولا لنقص فيهما ، بل لأن القوة الروحية نفسها ذهبت (١) .

فان الآثار العربية العلمية التى شرفت بعدد من روائع الانتاج العقلى انحطت بسيل من الكتب فى التنجيم ، والصنعة ، والسحر (٢) .

وأن مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة بين المسلمين — على الرغم من أنه لم يستطع الا أن يصدق بعدد منها — أمر مفرد فى آثار العصور الوسطى .

غير أن الأمر تفاقم بعد عصر ابن خلدون فحدث رد فعل متعانق الحلقات ينتقل به المسلمون من الأخذ بخرافة الى الأخذ بثانية ، فثالثة فأكثر .

---

(١) من مقال لجورج سارتون فى كتاب : الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين ص٥٠ . نشر مؤسسة فرانكلين فى القاهرة .
(٢) صفحة ٥١ من الكتاب نفسه .

بعدئذ فتح الانحطاط الروحى فى الاسلام الباب للخرافات شيئا فشيئا ، ثم ضعفت الحواجز العقلية التى تحول عادة دون الخرافات ، بتأثير بعض الفقهاء الجهلة المتعصبين .

ثم ان الخرافات الجديدة زادت فى سذاجة العامة ، وجهالتهم وغبائهم ، وتعصبهم . وهذه بدورها ادت الى نشوء خرافات جديدة وهلم جرا (١) .

ونحن نجد أن السلطة العثمانية قد ظلت عظيمة طوال قرون كثيرة ، ومع ذلك فان الثقافة لم تبلغ فى تركيا مابلغته فى عدد كبير من الدول الأوروبية التى كانت أضعف من تركيا كثيرا ، والتى كانت ترهب تركيا رهبة الموت .

ان ضعف الايمان الاسلامى بين المسلمين ساعد على تدعيم الامبراطورية العثمانية ، ومع ذلك تقوضت اركان العلم العثمانى .

ان الأسباب الحقيقية لكل انحطاط تكون أسبابا داخلية لا أسبابا خارجية . لقد عبس المسلمون فى وجه البحوث العلمية ونفروا منها ، بسبب اعتقاد الفقهاء بأن : مايعرفونه هم من العلم يكفى لكل شىء . وهكذا : وقف التقدم العلمى بسبب تعنتهم ، وعدائهم للتفكير فى سبيل المعرفة (٢) .

ومن رأى صاحب هذه المقتطفات اذن أن : الاعتداء الصليبى ، الذى دام طوال القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر ، وأن الغزو التتارى الذى انتهى بالاستيلاء على بغداد وتخريبها فى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد لم يكن لكليهما اثر على ضعف المسلمين الثقافى والروحى ، وأن كان ذا اثر على الجانب السياسى . لكن الجانب السياسى بعيد الصلة عن الجانب الثقافى والروحى .

والعامل الوحيد فى نظره هو :

الانحطاط الروحى الذى أصاب المسلمين ، والذى يتمثل فى الخرافات . على نحو ما يذكر فى كتب الصنعة (الكيمياء) والتنجيم للمؤلفين المسلمين :

---

(١) صفحة ٥٤ ، ٥٥ من الكتاب نفسه .

(٢) صفحة ٤٨ من الكتاب نفسه .

ومثل على بعد الصلة بين الجانبين السياسى والثقافى بتركيا . فأبان انها : لم تكن على علم ومعرفة تساوى قوتها ، ولكنه لم يذكر تحديد تلك العلاقة ابان ضعفها : أكانت فى ضعفها السياسى ، قوية فى المعرفة والثقافة ؟

واذا كانت تركيا ضعيفة فى الثقافة والمعرفة فى كلتا الحالتين الا يكون من الأوفق استخلاص : أن الميل الى المعرفة فى الشعب التركى أقل من الميل العسكرى فيه واذن فالضعف العلمى فيه أمر طبيعى ، وعندئذ لايصح التمثيل بتركيا فيما يريد أن يذهب اليه المؤلف .

كيف لايكون الضعف السياسى ذا أثر على الثقافة والعلم فى أمة من الأمم ؟ ان الاغريق فى القديم عندما ذهب استقلالهم انحط تفلسفهم ، وانحط تفكيرهم .

فمذهب الأبيقورية يدل على الانحراف فى التفكير الأغريقى . وان مذهب « اللاأدرية » يدل على الحرج الذى صحب التفكير الاغريقى المنطلق قبل ضياع استقلال هذا الشعب (الاغريقى) .

اننا فى عصرنا الحديث لانكاد نصدق ، أن : الألمان واليابان بعد ضياع استقلالهم وتحكم الحلفاء فى توجيههم لم يتأثروا فى معرفتهم وثقافتهم الموجهة .

ان شباب الألمان وشباب اليابان اليوم له من المقاييس الخلقية ومن النظر فى الحياة مايختلف تمام الاختلاف عما كان لهم من مقاييس قبل الحرب العالمية الثانية .

ان اتجاه التفكير السائد فى المانيا قبل هذه الحرب كان نحو « ألمانيا » : نحو عظمتها ، وعبقريتها ، وتفردها بالعظمة والعبقرية . أما بعد هذه الحرب فحلت الديموقراطية أو العالمية محل « ألمانيا » فى تفكير الألمان .

وكذلك الشأن بالنسبة لليابان . هذا الشعار : « آسيا للآسيويين » كان هدف التفكير اليابانى . والنزعة العقلية اليابانية كانت لتبرير طرد الرجل الأبيض من آسيا .

ولكنه يدعو (الشعب اليابانى) اليوم الى التعاون معه أو تبرير سيادته عليـــه .

ولهذا مازلنا نرى ان الحال الداخلى ، كالحال الخارجى للمسلمين ، ضاعف ظلام المستقبل لهم ، وقلل من رؤية العوامل المبددة لهذا الظلام ، وكثرتها (تلك العوامل) .

اذ انه فى مثل هذه الحال لاينتظر : أن تكون تلك العوامل كثيرة لو كانت لها قوة . لأنها لو كانت كثيرة لما تكون ذلك الظلام وتكاثف واشتد . ولو كانت قليلة ، ومع قلتها لها قوة ، فلا ينتظر أن تنفذ قوتها الى كثافة هذا الظلام أو تحد من كثرته وشدته بحيث يرى ذلك من يعاصر عملها ويرقبه ، لأن عملها عندئذ لايلبث أن يبدأ حتى يعوق ، أو يضىء حتى يخبو ضوؤه تحت موجة الظلام القديمة الحالكة .

فلابد من زمن يمضى حتى يرى أثر العمل ، ويهتدى السالك بذلك الضوء الذى لمع ثم حجب بذلك الظلام القوى فى كمه وكيفيته .

لابد من زمن يمضى ، يقصر أو يطول ، حتى نتبين انه كان هناك عامل حاول أن يبدد ذلك الظلام .

ولابد من زمن يمضى ، أو يطول ، حتى يتضح لدينا كذلك : أن هذا العامل كان من القوة بحيث استطاع أن يعمل ، واستطاع ان يستمر فى عمله ، رغم كثرة العقبات التى تحول دون ابتدائه بالعمل ودون استمراره فيـــه .

* * *